أصول البحث العلمي وقواعده

في القرآن الكريم

دراسة موضوعية

أ.د/ عبد الحميد هنداوي

الأستاذ بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

أصول البحث العلمي وقواعده في القرآن الكريم

تتعدد أصول البحث العلمي وقواعده في القرآن الكريم وتتنوع ما بين أصول علمية وأصول أخلاقية ، وسوف نفصل الحديث هنا في كل واحد من تلك الأصول .

أولا : الأصول العلمية :

وتقوم هذه الأصول على :

أولا : اعتماد الحوار العقلي المنهجي :

وذلك من خلال :

١- البدء بنقاط الاتفاق

٢- تحديد موضوع الحوار

٣- الاحتكام إلى الفطرة السليمة وبدائه العقول

٤- تقرير الخصم بالمقدمات الصحيحة المفضية إلى النتائج الصحيحة

٥- تقديم الأصول على الفروع

٦- ترك التناقض في الاستدلال

٧- الاحتجاج بالقياس والحجج العقلية

ثانيا : الموضوعية :

وذلك من خلال :

١- ترك اتباع الهوى والتجرد في طلب الحق

٢- ترك التقليد بغير دليل

٣- ترك التكلم بغير علم

٤- ترك الأخذ بمجرد الظن والشك

٥- ترك النفي قبل الإحاطة

ثالثا : الاحتكام إلى الأدلة العلمية :

وذلك من خلال :

١- تحديد الأصل الذي يرجع إليه عند الاختلاف

٢- الاحتكام إلى الحقائق الثابتة

٣- الاحتجاج بالنقل المعتبر عند الخصم

٤- الاحتجاج بالبراهين العلمية

٥- إلزام الخصم وتقريره بلوازم الحقائق .

وفيما يلي تفصيل الكلام في كلٍّ :

أولا : اعتماد الحوار العقلي المنهجي :

حثُّ القرآن على التعقل والتفكر والنظر :

من خلال ما سبق إيراده في تعريفات الحوار نستطيع أن نقول : إن الحوار في حقيقته نوع من التفكير وإعمال العقل بغرض إقناع المحاور محاوره بفكرة ما ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن القرآن الكريم يعدُّ أول وأعظم كتاب يولي هذا الأمر عناية بالغة ، وذلك من خلال:

١- إعلاء شأن العقل وبيان فضله ، ووجوب صيانته

٢- إعلاء قيمة الحواس باعتبارها وسائل للمعرفة

٣- الدعوة إلى إعمال العقل والحواس ، وعدم تعطيلهما

٤- الدعوة إلى طلب الحق بالتفكر وبذل الجهد للوصول إليه

قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) آل عمران

فأثنى في هذه الآية على الذين يتفكرون في دلائل وحدانيته سبحانه ووصفهم بأنهم أولوا الألباب وأنهم هم الذين ينتفعون بما في خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ من الآيات .

وهذا مثل قوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الرعد (٣)

وقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) النحل

وقوله تعالى: "اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) الزمر

وقوله تعالى: "اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) الزخرف

"وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) الجاثية(١٣)

وقال تعالى: "فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) الأعراف

فأمر بما يعين على التفكر ، وتيسير السبيل إليه لأخذ العبرة والاتعاظ بمآلات الأمور بما يكون في قصص السابقين .

ولأجل ذلك فصل الله تعالى الآيات وبينها للناس قال تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) يونس (٢٤)

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) النحل

وقال تعالى: أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) الأعراف

فحثهم على التفكر في أمر الرسول المرسل إليهم، لا سيما وأنه صاحبهم وهم قومه وأعرف الناس بشمائله وشيمه ﷺ حيث نشأ بين ظهرانيهم وعرف بينهم بصدقه وأمانته.

ونحوا من ذلك قوله تعالى: "أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) الروم

وقوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) سبأ (٤٦)

"قيل: إنما أعظكم بواحدة، وتلك الواحدة أن تقوموا لله بالنصيحة وترك الهوى. (مَثْنَى) يقول: يقوم الرجل منكم مع آخر فيتصادقان على المناظرة: هل

علمتم بمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم جنونًا قطُّ؟ ثم ينفرد كل واحد منكم، فيتفكر ويعتبر فردًا هل كان ذلك به؟ فتعلموا حينئذٍ أنه نذير لكم."[1]

وحثهم على النظر في الآيات الكونية فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ فإن هذا النظر هو أدعى للتفكر كذلك .

فقال تعالى: "أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) الأعراف

وقال تعالى : "قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ الروم (٤٢)

وقال تعالى : " قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ (١٣٨) وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ آل عمران (١٣٩)

وقال تعالى : "وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ الأنعام (١١)

---

[1] – تفسير الطبري – (ج ٢٠ / ص ٤١٨)

وقال تعالى : "قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ يونس(١٠١)

وقال تعالى : "وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ النحل(٣٦)

وقال تعالى : " قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) الروم

وقوله تعالى: " وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) النحل

جعل الذين ينتفعون بالآيات هم الذين يعقلون ،ولا شك أن التعقل هو مفتاح التفكر .

وقوله تعالى: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ

يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ "(٢٤) الروم

بين في هذه الآيات قيمة حاسة السمع لكونها مفتاح العلم والنظر والتعقل والتفكر ، ولذلك جمعت الآيات بين الثناء على الذين يتفكرون ،العالمين الذين يسمعون ويعقلون ، ونحو من ذلك :

قوله تعالى:وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ النحل (٦٩)

ويمكننا أن نفصل الكلام هنا فيما سبق إجماله من أسس الحوار العقلي في القرآن الكريم ، ويمكننا أن نلخص أهم ما وقفنا عليه من هذه الأسس والقواعد في الآتي :

١- البدء بنقاط الاتفاق

إن البدء من نقطة متفق عليها واستثمارها لتكون سبيلا لحوارات أخرى منهج قرآني ونبوي متميز ينبغي أن ينتبه إليه كل مناظر، فلا يعدم نقطة خير لتكون مفتاحا يستثمره في حواره مع الآخرين إذ إن مقصود المناظرة هو قطع النزاع وتضييق دائرة الخلاف، وهذا أسلوب يشهد له القرآن الكريم في أكثر من آية ... ، فليس الهدم والنقض بين المتناظرين يجدي في كل الأحوال بل لابد من

تحرير محل النزاع وتأسيس الأسس التي يتفق عليها الجميع يقول الشاطبي رحمه الله: " وإن كان المناظر مخالفا له في الكليات التي ينبني عليها النظر في المسألة فلا يستقيم له الاستعانة به، ولا ينتفع في مناظرته، إذ ما من وجه جزئي في مسألته إلا وهو مبني على كلي، وإذا خالف في الكلي ففي الجزئي المبني عليه أولى، فتقع مخالفته في الجزئي من جهتين، ولا يمكن رجوعهما إلى معنى متفق عليه فالاستعانة مفقودة"[2].

فمعنى ذلك أن على المحاور أن يلتمس في محاورته لخصمه أصلا كليًّا يتفقان فيه ويلتقيان عليه ويبدآن منه المحاورة ؛ وذلك قبل الولوج إلى جزئيٍّ يختلفان عليه ؛ وذلك أنه ما من جزئي إلا وله كليٌّ يرجع إليه ، وكلما نزل الناس في محاوراتهم إلى الجزئيات كلما اتسع الخلاف ، وكلَّما ارتقوا إلى الكليات كلما قلَّ الخلاف ؛ وشاهد ذلك بين المسلمين أنفسهم ؛ بل بين خيرهم من العلماء والمجتهدين ؛ فهؤلاء أئمة المذاهب الأربعة المعروفة وغيرهم من المذاهب المندثرة ، إذا تأملنا وجدناهم جميعهم متفقون في أصول الدين وكلياته العظيمة ، وكلما ارتقينا بالأصول إلى أعلى كلما عظم اجتماعهم ، وقوي اتفاقهم في أصول الدين ومبانيه ، كأركان الإسلام والإيمان ونحو ذلك ، وكلما نزلنا في تأمل أقوالهم إلى الفروع ونحوها من المسائل كلما عظم الاختلاف ، ومعلوم أن اختلافهم هذا في الفروع ليس فيه ضرر كاختلاف الأصول بينهم وبين غيرهم من غير أهل السنة والجماعة ؛ بل قد يكون فيه من النفع والخير للأمة ما لا يخفى على أهل الفقه والعلم والدراية باختلاف الفقهاء والمذاهب .

---

[2] – الموافقات في أصول الشريعة، للإمام إبراهيم بن موسى الشاطبي تحقيق عبد الله دراز، ٣٣٢/٤ ، دار المعرفة – بيروت ط١، ١٤٠٨هـ .

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: "إن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فأنزل الله (قل هو الله أحد الله الصمد) والصمد الذي لم يلد و لم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ولا شيء يموت إلا سيورث وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث (و لم يكن له كفوا أحد) قال: لم يكن له شبيه ولا عدل وليس كمثله شيء"[3]

---

[3] – الترمذي كتاب تفسير القرآن الكريم باب سورة الإخلاص رقم(٣٢٨٧) بإسناده عن أبي بن كعب سنن الترمذي – (ج ٥ / ص ٤٥١) :

٣٣٦٤ – بسم الله الرحمن الرحيم حدثنا أحمد بن منيع حدثنا أبو سعد هو الصنعاني عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب ، والحاكم في المستدرك، كتاب التفسير باب تفسير سورة الإخلاص رقم(٣٩٨٧)،وقال صحيح الإسناد، والإمام أحمد في مسند أبي بن كعب رقم (٢٠٧١٤)، والبيهقي في كتاب الإيمان بالله فصل في معرفة الله عز وجل وصفاته رقم (١٠١)وقد أورده ابن جرير في تفسيره مرسلا قال " تفسير الطبري – (ج ٢٤ / ص ٦٩١)حدثنا أحمد بن منيع ومحمود بن خداش قالا ثنا أبو سعيد الصنعاني، قال: قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك فأنزل الله:(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جلّ ثناؤه لا يموت ولا يورث(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) : و لم يكن له شبيه ولا عِدل، وليس كمثله شيء .

وأورده في جامع الأحاديث مخرجا – (ج ٣٢ / ص ٣٠٢) فقال :

عن أبي بن كعب : أن المشركين قالوا للنبي – صلى الله عليه وسلم – يا محمد انسب لنا ربك فأنزل الله {قل هو الله أحد} [الإخلاص : ١]إلى آخر السورة (أحمد ، والبخارى في تاريخه ، والترمذى ، وابن جرير ، والبغوى ، وابن المنذر ، الدارقطنى في الأفراد ، وأبو الشيخ في العظمة ، والحاكم ، والبيهقى في الأسماء والصفات) [كتر العمال ٤٧٣٤]

أخرجه أحمد (١٣٣/٥ ، رقم ٢١٢٥٧) ، والبخاري في التاريخ الكبير (٢٤٥/١) ، والترمذى (٤٥١/٥ ، رقم ٣٣٦٤) ، وابن جرير (٣٤٢/٣٠) ، وأبو الشيخ (٣٧٢/١ ، رقم ٨٨) ، والحاكم (٥٨٩/٢ ، رقم ٣٩٨٧) ، والبيهقى في السنن الكبرى (١١٣/١ ، رقم ١٠١) ، وفي الاعتقاد (٤٤/١) .

وأورده في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد . محقق – (ج ٧ / ص ٥٦) فقال :

١١٥٤٢–وعن جابر قال: قالوا: يا رسول الله أنسب لنا ربك. فنزلت {قل هو الله أحد} إلى آخرها.

فحاورهم – صلى الله عليه وسلم – على قضايا هي محل اتفاق لديهم وهي أن كل ما يولد لابد له من موت ؛ ومن ثم لا يليق أن نعبد من مصيره إلى الموت.

ويظهر هذا التدرج في الحوار متمثلا في البدء بالأمور المتفق عليها في حـــوارات النبي ﷺ بآيات القرآن الكريم .

فعن مجاهد[4] قال: "إن أعرابيا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فقـــرأ عليـــه رسول الله ﷺ (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً) فقال الأعرابي: نعم، ثم قرأ عليه:(وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) قال الأعرابي: نعم ثم قرأ عليه كل ذلك وهو يقول نعم حتى بلغ:(كَذَلِكَ يُـــتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ)[5] فولى الأعرابي فأنزل الله (يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ

رواه الطبراني في الأوسط ورواه أبو يعلى إلا أنه قال: إن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: انسب الله. وفيه مجالد بن سعيد قال ابن عدي: له عن الشعبي عن جابر،وبقية رجاله رجال الصحيح.

وفي المعجم الأوسط للطبراني – (ج ١٢ / ص ٤٢٦)

٥٨٤٨ – حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي قال : نا سريج بن يونس قال : نا إسماعيل بن مجالد ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن جابر قال : قالوا : يا رسول الله ، انسب لنا ربك ، « فنزلت : (قل هو الله أحد (١)) إلى آخرها » « لم يرو هذا الحديث عن مجالد إلا ابنه إسماعيل ، تفرد به سريج بن يونس ، ولا يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد »

وذكر في جامع الأصول من أحاديث الرسول رواية الترمذي عن أبي بن كعب – (ج ٢ / ص ٨٩٣) ثم قال :وأخرج أيضا ، عن أبي العالية عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يذكر عن أُبيّ ، قال : وهذا أصحُّ. قال الشيخ الألباني : (حسن دون قوله : " والصمد الذي.." – ظلال الجنة ٦٦٣ / التحقيـــق الثاني). ضعيف سنن الترمذي – (ج ١ / ص ٤٣٩).

[4] – الإمام المفسر مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج، تلميذ الصحابي الجليل ابن عبـــاس رضـــي الله عنهما، أدرك بعض الصحابة، وروى عنهم، ت رحمه الله ١٠٢هـــ. الطبقات الكبرى لابن سعد ٥ / ٤٦٦.

[5] – النحل ٨٠-٨٣.

يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ[6]) [7]، فتأمل كيف بدأ صلى الله عليه وسلم حواره مع هذا الأعرابي مبتدئا بالقضايا المسلم بها وهي الإقرار بنعم الله على العباد، ثم انتقل به إلى الغاية المنشودة وهي الاستسلام لأمر الله تعالى والإذعان لأمره ونهيه، وهذا ما يقتضيه العقل، لكن التعنت والسفه والجحود كان سببا لرفض الحق المبين. [8]

وفي هذه الآية الكريمة " قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)"

يأمر الله تعالى نبيه ﷺ هنا أن يدعو أهل الكتاب إلى بدء الحوار من نقطة التقاء واتفاق يلتزم بها كلا الفريقين من الطائفتين المتحاورتين ، ولا شك أن هذه نقطة يسلم بها الخصم من أهل الكتاب على الجملة ، وهي إفراد المعبود بالعبادة ، وأهل الكتاب الذين يتوجه إليهم الخطاب في هذه الآية لا يجادلون في وجوب إفراد المعبود بالعبادة ؛ وإنما يقع الجدال معهم في حقيقة هذا المعبود وصفاته كادعاء الولد له مثلا ؛ قال تعالى :" وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ "(٣٠)التوبة

---

[6] - النحل ٨٣.

[7] - الحديث أخرجه الحافظ ابن كثير في تفسيره، ٢ / ٥٨١، والسيوطي في الدر المنثور١/ ١٣٣.

[8] - مناظرات الرسول ﷺ مع المشركين في العهد المكي- د/ خليفة محمد البلوشي – أطروحة دكتوراة – مخطوط بجامعة الإمام محمد الخامس – ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥م - ص ١٧٨-٧٩ بتصرف يسير .

ورغم التعددية الواضحة في حقيقة الإله المعبود لدى أهل الكتاب ؛ فإنهم يناقضون أنفسهم بالتبرؤ من تلك التعددية وادعاء الوحدة لها رغم ما فيها من التعدد الواضح لكل ذي عينين ؛ فالنصارى مثلا : يقولون في تراتيلهم :"بسم الآب والابن والروح القدس : إله واحد ، آمين ."

وقال تعالى :وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (الأنعام:٩٢)

قَوْلُهُ تَعَالَى: " إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ "

وقد ذكر المفسرون في أسباب نزول هذه الآية وجهين :

الوجه الأول :ما رواه ابن أبي حاتم بإسناده "عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلَهُ: " إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ " يَعْنِي: مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَتِ الْيَهُودُ: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ كِتَابًا ؟ قَالَ:"نَعَمْ"، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: " قُلْ " يَا مُحَمَّدُ: " مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ " وذكر بإسناده عَنِ السُّدِّيِّ، قَوْلَهُ:" " إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ " ، قَالَ: فِنْحَاصُ الْيَهُودِيُّ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ مِنْ شَيْءٍ".

وبإسناده عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَوْلَهُ: " إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ " ، قالتِ الْيَهُودُ:"وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا".

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: " قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ موسى "

وَبِهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَتِ الْيَهُودُ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ كِتَابًا ؟ قَالَ:"نَعَمْ"، قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ كِتَابًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: " قُلْ " يَا مُحَمَّدُ: " مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى " ، " قُلِ اللَّهُ " أَنْزَلَهُ

وبإسناده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ، يُقَالُ لَهُ مَالِكُ بْنُ الصَّيْفِ، فَخَاصَمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"أَنْشُدُكَ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَجِدُ فِي التَّوْرَاةِ أَنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْحَبْرَ السَّمِينَ ؟"قَالَ: وَكَانَ حَبْرًا سَمِينًا، فَغَضِبَ، وَقَالَ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ الَّذِينَ مَعَهُ: وَيْحَكَ ! وَلا عَلَى مُوسَى ؟ قَالَ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: " وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ "

الْوَجْهُ الثَّانِي:ما رواه بإسناده عن مُجَاهِد ، يَقُولُ: " مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ " قال:"قَالَهَا مُشْرِكُو قُرَيْشٍ".[9]

فنلاحظ هنا في هذا الحوار أن الله تعالى قد أمر نبيه ﷺ أن يرجع بالمحاورين له عند الخلاف إلى نقطة سواء يتفقون عليها ويلتقون عندها ؛ لذا فقد أمره أن يقررهم برسالة موسى عليه السلام – وهي مما لا ينكرونه – وذلك بعد أن كابروا وغالطوا بادعائهم :" مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ" .

ونحوا من هذا :قال الله تعالى: "ثم آتينا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ

---

[9] – تفسير ابن أبي حاتم الرازي – تحقيق مركز الدراسات بمكتبة نزار الباز – مكة المكرمة (ج ٥ / ص ٣١٣- ٣١٤)

(١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) الأنعام

فبدأ سبحانه بالأمر المتفق عليه وهو كتاب موسى عليه السلام ، ثم أتبع ذلك بإثيات محل الخلاف بينه وبين محاوريه ، وهو الكتاب المبارك المنزل على محمد ﷺ .

وغالبا ما نرى في المنهج القرآني فيما يحكيه الله تعالى عن أنبيائه ورسله – صلوات الله وسلامه عليهم – البدء بالأمور المسلم بها مما تقره بدائه العقول والفطر السليمة ، وذلك على نحو ما نجد في النقطة التالية .

٢- تحديد موضوع الحوار

هذا هو الأصل الثاني من الأصول العلمية المنهجية :وهو يختص بتحديد الموضوع والقضية التي يدور حولها الحوار ، فلا بد من تحديد إطار محدد يدور حوله النقاش ، وإلا تحول الحوار إلى جدل عقيم سائب ليس له نقطة محددة ينتهي إليها ، وحينئذ يصدق في المتحاورين قول الله تعالى في المثل الذي ضربه للمنافقين : "كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا "فإنهم "لفرط الحيرة كانوا تخبطون خبط عشواء ويمشون كل ممشى"[10]

[10] – تفسير الألوسي – (ج ١ / ص ١٩٥)

ولذلك علم الله تعالى عباده المؤمنين في مفتتح كتابه أن يسألوه الهداية للصراط المستقيم ،فقال سبحانه ملقنا عباده تحديد الغاية والمقصد والسبيل :" اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"(الفاتحة:٦)

وحث النبي ﷺ على تقديم النية قبل كل عمل لتحديد القصد وليتم تصور العمل الذي يتم العزم عليه فتتهيأ له النفس ، فقال ﷺ " إنما الأعمال بالنيات "[11]

٣-الاحتكام إلى الفطرة السليمة وبدائه العقول:

القرآن يحتكم في حواراته إلى الفطرة السليمة ، وذلك كما في حوار يوسف عليه السلام لصاحبي السجن في قوله تعالى :(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)[12]

ألم تر كيف أنه ﷺ قد قررهم أولا بما هو محل اتفاق ولا نزاع فيه ، وهو من المسلمات وبدهيات العقول والنفوس والفطر السليمة المستقيمة أن اتخاذ إله واحد له منهج واحد خير من اتخاذ آلهة عدَّة من أرباب متفرقين مختلفين في مناهجهم ، وقد ضرب الله تعالى لذلك مثلا يقرب الأمر للمجادلين في توحيده فقال :" ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩)"الزمر.

---

[11] – صحيح البخاري – كتاب بدء الوحي – باب كيف كان بدء الوحي (ج ١ / ص ٣) ، وأطرافه في :[٥٤ ، ٢٣٩٢ ، ٣٦٨٥ ، ٤٧٨٣ ، ٦٣١١ ، ٦٥٥٣] ، وأخرجه مسلم في كتاب الإمارة ، باب : إنما الأعمال بالنية ،بقوله قوله صلى الله عليه و سلم :"إنما الأعمال بالنية" رقم ١٩٠٧

[12] – يوسف ٣٩.

وقال تعالى : " أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) الأنعام

"لَقَّن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخاطبهم خطاباً كالجواب عن أقوالهم وتورّكاتهم ، فيفرّع عليها أنّه لا يطلب حاكماً بينه وبينهم غير الله تعالى ، الّذي إليه مرجعهم ، وأنهم إن طمعوا في غير ذلك منه فقد طمعوا منكراً"[١٣]

"أي: قل يا أيها الرسول { أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا } أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه. فإن غير الله محكوم عليه لا حاكم. وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص، والعيب، والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكما، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

{ الَّذِي أَنزلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلا } أي: موضَّحا فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكما ولا أقوم قيلا لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة، من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك { وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنزلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ } ولهذا، تواطأت الإخبارات { فَلا } تشُكَّنَّ في ذلك ولا { تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ } .

ثم وصف تفصيلها فقال: { وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلا } أي: صدقا في الأخبار، وعدلا في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه { لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ } "حيث

---

13 – التحرير والتنوير – (ج ٥ / ص ٨٩)

حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرهـــا، ولا اقتراح أحسن منها"[14]

وإذا كان الأمر كذلك فإن الفطرة السليمة تقرر ألا يتخذ حكما غير الله الذي أنزل الكتاب مفصلا .

قال تعالى :"فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (الحاقة:٤٧)

ومعنى هذا أن الفطر والعقول المستقيمة تأبى أن يظهر مدع للرسالة فيفتري على الله ويتقول عليه ثم يمكنه الله تعالى وينصره ويعلي كلمته ؛ وهو كاذب على الله تعالى ؛ بل الذي تقره النفوس والفطر السليمة هو ما تقرره الآيات الكريمـــة : "وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ "(الحاقة:٤٧)

وقال تعالى :"لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ

---

[14] – تفسير السعدي – تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان – الشيخ عبد الرحمن بـــن ناصـــر السعدي – اعتنى به عبد الرحمن بن معلا اللويحق – ط مؤسسة الرسالة. (ج ١ / ص ٢٧٠)

فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) المائدة

أي إن الاعتقاد بألوهية المسيح عليه السلام مما يتنافى مع الفطر السليمة والعقول المستقيمة ؛فإن المسيح عليه السلام عاجز لا قدرة له مع قدرة الله وإرادته ؛ بل إن البشر جميعا عاجزين أمام تلك القدرة والإرادة ؛ ولذا لقن الله تعالى نبيه عليه السلام حجته في ذلك الحوار : " قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا . .الآية "

ونلاحظ أن أغلب أدلة التوحيد — إن لم تكن جميعها — من هذا النوع الذي يخاطب الفطر السليمة والعقول والنفوس المستقيمة .

قال تعالى :"قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) المائدة

فهذا مما تأباه الفطر السليمة والعقول والنفوس المستقيمة أن يعبد الإنسان مَا لا يَمْلِكُ لَهُ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ، ويترك عبادة الله السميع العليم .

وقال تعالى :" قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا

أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨) قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الأنعام

ففي حوار القرآن هنا مع المستهزئين ، أرشد الله تعالى رسوله ﷺ إلى محاورتهم في قضية التوحيد وفق ما تقرُّ به بدائه العقول والنفوس والفطر السليمة المستقيمة .

ومن ذلك قوله تعالى : "قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُلْ لَا

أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)الأنعام

كما يحتكم القرآن كذلك إلى البديهيات العقلية:

حيث يعتمد القرآن كذلك الاستدلال بالبديهيات العقلية كالمقارنة بين :

القيم الموجبة والقيم السالبة، حيث إن تفضيل القيم الموجبة على السالبة أمر مستقر في بديهيات العقول.

فمن ذلك المقارنة بين من يملك ومن لا يملك لبيان أحقية المالك بالألوهية مثل قوله تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[١٥] .

وكالمقارنة بين من يخلق ومن لا يخلق لبيان استحقاق الخالق سبحانه للألوهية وحده كما في قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)[١٦] .

وكالمقارنة بين من يهدي ومن لا يهدي إلا أن يهدي لبيان استحقاق الهادي سبحانه للألوهية كما في قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)[١٧] .

---

15 – النحل: ٧٥.

16 – النحل: ١٧.

17 – يونس: ٣٥.

وكالمقارنة بين من يَرْزُق ويُطْعِم ومن يُطْعَم ويُرْزَق ولا يُطْعِم ولا يَـرْزُق، لبيان استحقاق الرازق سبحانه للألوهية وحده، وذلك كمـا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[18].

وكالمقارنة بين من له سائر صفات الكمال والجلال ومن ليس لـه تلـك الصفات بل يتصف بعكس ذلك من صفات النقص والعجز، لبيان اسـتحقاقه سبحانه للربوبية والألوهية وحده، وذلك كما في قوله تعالى عن الشركاء: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ﴾[19].

٤-تقرير الخصم بالمقدمات الصحيحة المفضية إلى النتائج الصحيحة:

وذلك عن طريق: الاستدلال بالأدلة المادية المشاهدة:

والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر فمن ذلـك قوله تعالى: "﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)

---

18 - الأنعام: ١٤.

19 - الأعراف: ١٩٥.

وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ
لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (٩٨) وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ
شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ
انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)
وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ
لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
(١٠١) ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ
وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ" (الأنعام: ١٠٤)

وقوله تعالى: "وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ
وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن
ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ

(١٤١) ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين" (١٤٢) الأنعام

وقوله تعالى: "إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين" (٥٤) الأعراف

والقرآن الكريم مليء بمثل هذا النوع من الحوار، الذي يبدأ بتقديم مقدمات صحيحة يقرُّ بها الخصم من الآيات المشاهدة في الكون الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفاته مما لا ينكرها إلا جاحد مكابر للحق .

وقد يعمد إلى استخدام استفهام التقرير، المتضمن الاعتراف بالمقدمات التي توصل إلى النتائج المطلوبة،وذلك كما في قوله تعالى: "هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين (١٨٩) فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما فتعالى الله عما يشركون (١٩٠) أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون (١٩١) ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون (١٩٢) وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون (١٩٣) إن

الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ" (١٩٨) الأعراف

وقد قرَّر القرآن المشركين بالتوحيد (توحيد الربوبية) ، وسجل اعترافهم بذلك في أكثر من آية ، من ذلك قوله تعالى (قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) يونس ٣١.

ويبدو واضحا من خلال الآية انحراف المشركين العقدي بإشراكهم مع الله آلهة أخرى، رغم إقرارهم بالربوبية لله تعالى وقد تعرفوا عليه بآثاره ومظاهر نعمته عليهم التي لا ينكرونها، لأنها محسوسة مشاهدة، و لم يكن ينتابهم أدنى شك في ذلك، إذن فما الذي دفعهم إلى الإشراك بالله تعالى؟

لقد أجاب الكفار عن هذا الأمر ونقل القران ردَّهم، في أنهم لم يعتقدوا في الأصنام أنها مشاركة لله تعالى في الخلق أو التكوين ، وإنما يعتقدون فقط

شفاعتها لهم عند الله تعالى [20]؛بل إن اتخاذ الوسيط بين الله والعباد كان سمة لليهود والنصارى ؛فلم تكن العبادة لله تعالى مباشرة بل كانت تعتمد على الوسائط كذلك، والدليل على ذلك حديث عدي ابن حاتم رضي الله عنه، حيث قال: "أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ في سورة براءة (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّه) [21] قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه" [22].

وبصورة مماثلة كان حال أهل مكة، إذ إنهم اتخذوا الأصنام، كوسيلة تقربهم إلى الله تعالى وتشفع لهم عنده قال تعالى (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) [23]

وقال سبحانه (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ) [24]

---

[20] – سيأتي بيان ذلك تفصيلا عند عرضنا نماذج من قضايا الحوار في القرآن الكريم

[21] – التوبة ٣١.

[22] – أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن الكريم – باب ومن سورة التوبة رقم(٣٠٢٠) وقال عنه حديث غريب، وحسنه الألباني، أنظر جامع الترمذي ٢٧٨/٥ رقم (٣٠٩٥).

[23] – الزمر ٣.

[24] – الزمر ٤٣.

ويقول أيضا (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)[25].

وقال تعالى مبينا حقارة فعلهم هذا :(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ)[26]

ويقول سبحانه :(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا)[27]، فبدأ معهم المولى بمقدمات[28] ثم أوصلهم إلى النتائج المطلوبة، أو ما يسمى "تقرير الاستدلال بطريقة استسلاف المقدمات المؤاخذة بالاعتراف"[29]، قال البخاري رحمه الله :" وقال عكرمة رحمه الله[30]: -

---

25 - يونس ١٨.

26 - النحل ٧٣.

27 - الفرقان ٥٥.

28 - إن عدد المقدمات ليس له حد مقدر ينبغي استعماله كما يدعي المناطقة ومن وافقهم من المسلمين يقول شيخ الإسلام ابن تيمية " قد يكون الدليل مقدمة واحدة متى علمت علم المطلوب، وقد يحتاج المستدل إلى مقدمتين، وقد يحتاج إلى ثلاث مقدمات، وأربع وخمس وأكثر . ليس لذلك حد مقدر يتساوى فيه جميع الناس في جميع المطالب، بل ذلك بحسب علم المستدل الطالب بأحوال المطلوب، والدليل، ولوازم ذلك وملزوماته" الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية ، إدارة ترجمان السنة لاهور ، الطبعة الثانية ١٩٧٦م، ص٢٥٠.

29 - بدائع الفوائد للإمام ابن قيم الجوزية،الناشر مكتبة الرياض الحديثة، الرياض. - ٤/ ٣٢٥.

30 - عكرمة القرشي الهاشمي، مولاهم ، أبو عبد الله، أصله من البربر، من أئمة المفسرين ، ولد ٢٤هـ، وأدرك بعض الصحابة، وروى عنهم، ت١٠٤هـ، وقيل غير ذلك. حلية الأولياء لأبي نعيم ٣/٣٢٦، ٣٤٧، وتهذيب الكمال ٢٠ / ٢٦٤ وما بعدها.

قال الله تعالى- (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) يوسف ١٠٦.، "ولئن سألتهم من خلقهم ومن خلق السماوات والأرض ليقولن الله، فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره"

٥- تقديم الأصول على الفروع

من الأصول المنهجية المهمة : تقديم الأصول على الفروع ؛ بحيث لا يناقش الفرع قبل أصله الذي يرجع إليه ؛ فلا بد من البدء بالأهم من الأصول وضبطها والاتفاق عليها ، ثم الانطلاق منها لمناقشة الفروع والحوار حولها .

وهذا الطريقة في الحوار مأخوذة من المنهج القرآني الذي اعتنى بتأصيل الأصول قبل الفروع ؛ فمن ذلك البدء بدعوة التوحيد على لسان كل رسول قبل خوضه مع قومه في الفروع المختلفة مع تواجدها ، وإصرارهم عليها.

قال تعالى :" وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ"(النحل:٣٦)

و قال تعالى :"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ "(الأنبياء:٢٥)

والآيات في ذلك كثيرة معلومة على لسان كل رسول.

٦- ترك التناقض في الاستدلال

قال تعالى :" يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ

بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨) آل عمران

"قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بقوله:"يا أهل الكتاب"، يا أهل التوراة والإنجيل "لم تحاجون"، لم تجادلون "في إبراهيم" وتخاصمون فيه، يعني: في إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه.

وكان حجاجهم فيه: ادّعاءُ كلِّ فريق من أهل هذين الكتابين أنه كان منهم، وأنه كان يَدين دينَ أهل نِحْلته. فعابهم الله عز وجل بادِّعائهم ذلك، ودلّ على مُناقضتهم ودعواهم، فقال: وكيف تدَّعون أنه كان على ملتكم ودينكم، ودينُكم إما يهودية أو نصرانية، واليهودي منكم يزعُم أنّ دينه إقامةُ التوراة والعملُ بما فيها، والنصراني منكم يزعم أنّ دينه إقامةُ الإنجيل وما فيه، وهذان كتابان لم يترلا إلا بعد حين من مَهلِك إبراهيم ووفاته؟ فكيف يكون منكم؟ فما وجه اختصامكم فيه، وادعاؤكم أنه منكم، والأمر فيه على ما قد علمتم؟[31]

وذكر بإسناده :" عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبارُ يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيمُ إلا يهوديًّا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًّا! فأنزل الله عز وجل فيهم:"يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراةُ والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون"، قالت النصارى: كان نصرانيًّا! وقالت اليهود: كان يهوديًّا! فأخبرهم الله أنّ التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده، وبعده كانت اليهودية والنصرانية.[32]

---

[31] – تفسير الطبري – (ج ٦ / ص ٤٨٩)

[32] – السابق – وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه :" الأثر: ٧٢٠٢– سيرة ابن هشام ٢: ٢٠١: ٢٠٢ مختصرًا ، والأثر الذي قبله فيما روى الطبري من سيرة ابن إسحاق ، هو ما سلف رقم: ٦٧٨٢.

فنلاحظ في هذه الآيات تناقض المحاورين للنبي ﷺ في دعوى كلٍّ فريق أن إبراهيم عليه السلام كان منهم مع تناقض الفريقين وتباين الدعويين ، فضلا عن تقدم زمن إبراهيم عليه السلام على كلٍّ واحد من الفريقين ، حيث مَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلا مِنْ بَعْدِهِ ؛ ولذلك ينعى القرآن على هؤلاء القوم فيوبخهم بقوله :" أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَأَنْتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ "(٦٦)

ثم يبين لهم أن ملّة إبراهيم عليه السلام مباينة لملتهم وما هم عليه من الشرك فقال تعالى :"مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)

ومن ثم فإن أولى الناس باتباعه هم الموحدون أتباع محمد ﷺ "إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ "(٦٨)

٧-الاحتجاج بالقياس والحجج المنطقية:

قال تعالى :وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ

مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (الأنعام: ٩٢)

"قال هاهنا: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ }قال الله تعالى: { قُلْ مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ } ؟ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله، في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة: { مَنْ أَنزلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى } يعني: التوراة التي قد علمتم -وكل أحد -أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نورًا وهدى للناس، أي: ليستضاء بها في كشف المشكلات، ويهتدى بها من ظلم الشبهات."[٣٣]

فنلمح في هذه الآية الكريمة استخدام القرآن للحجج العقلية والمنطقية في مفهومها العام الذي تهتدي إليه العقول السليمة دون حاجة إلى منطق أرسطي أو جدل سفسطائي ، وإن كان يمكننا صياغة القضية صياغة منطقية على النحو التالي :

" مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ" : كلّيَّة سالبة

" أنزل الله الكتاب على موسى " : جزئية موجبة

وبما أن موسى- عليه السلام – بشر .

إذا تنتقض الكلية السالبة : " مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ"

وبذلك تصح دعوى النبي ﷺ للرسالة .

---

[33] - تفسير ابن كثير - (ج ٣ / ص ٣٠٠)

كما نلمح استخدام القياس بمفهومه العام في هذه الآية ونحوها كما في قوله تعالى: "ثم آتينا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) الأنعام

حيث بدأ سبحانه بالأمر المتفق عليه ،وهو كتاب موسى عليه السلام ، ثم أتبع ذلك بإثبات محل الخلاف بين النبي ﷺ وبين محاوريه ، وهو الكتاب المبارك المنزل على محمد ﷺ وذلك قياس صحيح لكون الكتابين من مشكاة واحدة ، فمن كذَّب بأحدهما فقد كذَّب بالآخر.

كذلك نجد استخدام القياس في مواضع كثيرة من القرآن وذلك كما في قوله تعالى :"كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩)البقرة

حيث قاست الآية البعث والإحياء الثاني على الإحياء الأول .

وكذلك في حوار إبراهيم عليه السلام لقومه قال تعالى:"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ

قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) الأنعام

"كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شيئاً منها ليس بإله لقيام دليل الحدوث فيها ، ولأن لها محدثاً أحدثها ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها . فلما رأى الكوكب الذي كانوا يعبدونه { قَالَ هذا رَبّي } أي قال لهم هذا ربي في زعمكم ، أو المراد أهذا استهزاء بهم وإنكاراً عليهم ، والعرب تكتفي عن حرف الاستفهام بنغمة الصوت . والصحيح أن هذا قول

من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأنه أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ، ثم يكر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة"[٣٤]

الأقيسة المنطقية في القرآن أقيسة فطرية :

المراد بالأقيسة المنطقية هنا هي الأقيسة العقلية المستقرة والثابتة في الفطر والنفوس والعقول ؛ ولذا سميتها بالفطرية ،كترتيب النتائج على المقدمات، والاستدلال بالمعلوم على المجهول اللازم عن ذلك المعلوم، ونحو ذلك من الأقيسة التي لا تحتاج إلى دراسة المنطق ولا علم الكلام والجدل بصعوبات تلك العلوم وتعقيداتها التي أدت إلى تعقيد كثير من العلوم، وأدت إلى صد كثير من الناس عن سبيل التعلم، ولا نزال نعاني من آثار اندساسها في مختلف العلوم العربية والإسلامية إلى يومنا هذا.

فاستخدم القرآن الكريم الأقيسة المنطقية والبراهين العقلية دون مغالاة ولا تعقيد.

ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم، قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٣٥] .

وهذا الدليل يسميه البعض بدليل التعارض، أي لو كان في الكون إلهان لتعارضا فإذا تعارضا تساقطا أو غلب أحدهما الآخر فصار له الحكم والغلبة

---

[34] – تفسير النسفي – **مدارك التنزيل وحقائق التأويل – عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات النسفي** – ط دار الكتاب المصري واللبناني – (ج ١ / ص ٣٣٥)

[35] – الأنبياء: ٢١-٢٢.

فينتفي بذلك أن يكون للكون إلهان في آن واحد، وهذا المعنى يعبر عنه القرآن الكريم في أيسر عبارة لا تعني بها العقول، ولا تنفر منها القلوب كما ترى.

ومن ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[36].

وهذا الدليل يعتمد كما ترى على قياس الأولى، وهو أن الذي خلق الشيء وأوجده أول مرة هو قادر على إعادته بقياس الأولى؛ إذ إن الإعادة أهون من البداءة.

وهذا ما يقرره القرآن في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[37].

ثانيا: الموضوعية:

وذلك من خلال:

١- ترك اتباع الهوى والتجرد في طلب الحق

---

36 - يس: ٧٨-٨١.

37 - الروم: ٢٧.

٢-ترك التقليد بغير دليل

٣-ترك التكلم بغير علم

٤-ترك الأخذ بمجرد الظن والشك

٥-ترك النفي قبل الإحاطة

١-ترك اتباع الهوى والتجرد لطلب الحق:

التجرد في طلب الحق أصل مكين من الأصول المقررة للبحث العلمي في القرآن - سواء كان هذا البحث من خلال دراسة مكتوبة ، أو كان حوارا علميا غرضه الوصول إلى الحقيقة ، وهو الميل النفسي إلى الشيء ؛ فإن وافق الهدى ، وإلا هوى بصاحبه ، قال الراغب :" الهوى : ميل النفس إلى الشهوة . ... وقيل : سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية ، وفي الآخرة إلى الهاوية ، والهُوي : سقوط من علو إلى سفل ."[38]

ولذا نهى الله تعالى في كتابه في نصوص كثيرة عن اتباع الهوى:

قال تعالى :"يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا" النساء(١٣٥)

---

[38] - مفردات القرآن - (ج ١ / ص ١٥٤٣)

و قال تعالى :"وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ" ص(٢٦)

فهذا حوار جرى بين نبي الله داود عليه السلام وهذين الخصمين ، وعاتبه الله تعالى فيه لميله لأحد الخصمين مأخوذا بقوة حجته فسارع إلى الحكم له بقوله " لَقَدْ ظَلَمَكَ "دون استماع للخصم الآخر ،"والقضية كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل . ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً ، ولم يطلب إليه بياناً ، ولم يسمع له حجة . ولكنه مضى يحكم : { قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه . وإن كثيراً من الخلطاء (أي الأقوياء المخالطين

بعضهم لبعض) ليبغي بعضهم على بعض . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم } . .

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان : فقد كانا ملكين جاءا للامتحان! امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس ، ليقضي بينهم بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم ." [39]فيمكن أن يقال :إن الله عدَّ تسرع داود عليه السلام بالحكم دون سماع حجة الآخر من الهوى – وهو وإن كان ميلا غير مقصود بتأثير عارض سحر بيان الخصم — فإنه مما لا يتسامح فيه في حق الأنبياء والمصطفين الأخيار ؛فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين [40]؛ فحذر الله تعالى نبيه من اتباع الهوى لما يفضي إليه من الضلال عن الحق.

---

[39] – في ظلال القرآن – (ج ٦ / ص ٢٠٨)

[40] – هذا هو ما ندين الله به مما يليق بحق الأنبياء لا ما ورد في كثير من كتب التفسير من الإسرائيليات من أن القصة تعريض بنبي الله داود عليه السلام من أنه أراد أن يتزوج بامرأة أوريا فقدمه في الغزو وعرضه للقتل ليتزوج امرأته ؛ فمثل هذا لا يصح به أثر بحمد الله تعالى.

وجاء في تفسير الخازن – الخازن ، أبو الحسن علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي – لباب التأويل في معاني التنزيل — ط دار الكتب العلمية — بيروت – لبنان (ج ٥ / ص ٢٨٧)

(فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به وما ينسب إليه)

"اعلم أن من خصه الله تعالى بنبوته ،وأكرمه برسالته ،وشرفه على كثير من خلقه ،وائتمنه على وحيه، وجعله واسطة بينه وبين خلقه ،لا يليق أن ينسب إليه ما لو نسب إلى آحاد الناس لاستنكف أن يحدث به عنه ،فكيف يجوز أن ينسب إلى بعض أعلام الأنبياء والصفوة الأمناء ذلك . روى سعيد بن المسيب والحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال :"من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ،وهو حد الفرية على الأنبياء." . وقال القاضي عياض :" لا يجوز أن يلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب الذين بدلوا وغيروا ونقله بعض المفسرين ،ولم ينص الله تعالى على شيء من ذلك ،ولا ورد في حديث صحيح ،والذي نص عليه الله في قصة داود وظن داود أن ما فتناه ،وليس في قصة داود وأوريا خبر ثابت ،ولا يظن بنبي محبةُ قتل مسلم ،وهذا هو الذي ينبغي أن يعول عليه من أمر داود ."

وقال تعالى : " واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (١٧٥) ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون" الأعراف(١٧٦)

وكفى بها زجرا لمتبع الهوى ؛ إذ ضرب له مثل الكلب .

وبلغ من أمر الهوى أنه يستعبد أتباعه ، فينقادون له متخذيه إلها يعبدونه من دون الله تعالى:قال تعالى : " أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا (٤٣) أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا" الفرقان(٤٤)

وقال تعالى : "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون "الجاثية(٢٣)

وأخبر تعالى أنه لا يمنع من اتباع الهدى إلا اتباع الهوى ، وأن عدم الاستجابة للهدى دليل على اتباع الهوى ، قال تعالى :"فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين "القصص(٥٠)

وترك اتباع الهوى يقتضي الإخلاص والتجرد لله في طلب الحق والانصياع لـــه، قال تعـــالى :"قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ" سبأ(٤٦)

"والقيام في قوله : { أن تقوموا } مراد به المعنى المجازي وهو التأهب للعمـــل والاجتهاد فيه كقوله تعالى : { وأن تقوموا لليتامى بالقسط } [النساء : ١٢٧] .

واللام للتعليل ، أي لأجل الله ولذاته ، أي جـــاعلين عملكـــم لله لا لمرضـــاة صاحب ولا عشيرة ، وهذا عكس قوله تعالى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون اللَّه أوثاناً مودةَ بينكم ﴾ [العنكبوت : ٢٥ ، أو لأجل معرفة الله والتدبر في صفاته ."[41]

وقد بين الله تعالى لنبيه ﷺ أنه ما يمنع محاوريه من اليهود والنصارى من اتباعه إلا اتباع الهوى ،وحذر الله تعالى نبيه ﷺ من اتباع أهوائهم فقـــال تعـــالى :"وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ" (١٢٠)البقرة

---

41 – التحرير والتنوير – (ج ١١ / ص ٤٢١)

وقال تعالى : " وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ "(١٤٧)البقرة

٢- ترك التقليد بغير دليل:

ترك التقليد بغير بينة أصل مكين كذلك من الأصول المقررة للبحث العلمي في القرآن ؛ ومن ثم في كل حوار علميٍّ غرضه الوصول إلى الحقيقة.

ومن أجل ذلك نعى الله على أولئك الذين يتبعون آباءهم أو علماءهم أو أحبارهم ورهبانهم أو سادتهم ورؤساءهم دون هدى من الله .

قال تعالى :"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (١٦٧) . . . . وَإِذَا

قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٧٠) وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ "البقرة (١٧١)

وقال تعالى :"وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ لقمان(٢١)

فبين الله تعالى في هذه الآيات أن الاتباع بغير هدى من الله يفضي بصاحبه إلى الشرك بالله ؛ لأن مرجعه إلى الإشراك في محبة الله تعالى ؛ بله الغلو في محبة المتبوعين أكثر من محبته سبحانه ، وبين ما يؤول إليه أمرهم في الآخرة من تبرؤ المتبوعين من أتباعهم ، وما آل إليه أمرهم من العذاب والحسرات التي لا تنقضي ، والأمنيات الباطلة بأن يعودوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من هؤلاء المتبوعين كما تبرؤوا منهم ، ثم بين حالهم في الدنيا ، وكيف أنهم كانوا يتركون اتباع ما انزل الله تعالى لاتباع ما وجدوا عليه آباءهم بغير دليل ولا بينة معرضين عن هدي الله تعالى تقليدا لآبائهم وأوليائهم.

كما أخبر تعالى عن حوار نوح مع قومه ، وكيف أنهم أعرضوا عنه متمسكين بتقليد رؤسائهم في الضلال ، قال تعالى :"قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا "نوح(٢٤)

٣- ترك التكلم بغير علم:

من الأصول المقررة للبحث العلمي في القرآن ؛ ومن ثم في كل حوار علميٍّ كذلك :ترك التكلم بغير علم ، قال تعالى:

"قُل لا أَقُول لَكُم عِندِي خَزَائِن اللَّهِ ولا أَعلَم الغَيب ولا أَقُول لَكُم إِنِي مَلَك إِن أَتَّبِع إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُل هَل يَستَوِي الأَعمَى والبَصِير أَفَلا تَتَفَكَّرُون" (٥٠)الأنعام

فالنبي ﷺ أمره الله تعالى أن يخبر محاوريه بذلك ، ويبين لهم أنه لا يتكلم بشيء من قبل نفسه بل يتبع ما يوحى إليه .

قال تعالى :"ثَمَانِيَة أَزوَاج مِن الضَّأن اثنَين ومِن المَعز اثنَين قُل آلذَّكَرَين حَرَّم أَمِ الأُنثَيَين أَمَّا اشتَمَلَت عَلَيه أَرحَام الأُنثَيَين نَبِّئُونِي بِعِلم إِن كُنتُم صَادِقِين (١٤٣) ومِن الإِبِل اثنَين ومِن البَقَر اثنَين وقال تعالى:"قُل آلذَّكَرَين حَرَّم أَمِ الأُنثَيَين أَمَّا اشتَمَلَت عَلَيه أَرحَام الأُنثَيَين أَم كُنتُم شُهَدَاء إِذ وَصَّاكُم اللَّه بِهَذَا فَمَن أَظلَم مِمَّن افتَرَى عَلَى اللَّه كَذِبًا لِيُضِل النَّاس بِغَير عِلم إِنَّ اللَّه لا يَهدِي القَوم الظَّالِمِين (١٤٤) قُل لا أَجِد فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِم يَطعَمُه إِلا أَن يَكُون مَيتَة أَو دَمًا مَسفُوحًا أَو لَحم خِنزِير فَإِنَّه رِجس أَو فِسقًا أُهِل لِغَير اللَّه بِه فَمَنِ اضطُر غَير بَاغ ولا عَاد فَإِن رَبَّك غَفُور رَحِيم" (١٤٥)الأنعام

فعظم سبحانه إثم من يحل أو يحرم من قبل نفسه فيضل الناس بغير علم ،وأمر نبيه ﷺ في الوقت نفسه أن يُعلِم محاوريه بوقوفه ﷺ عند حدود ما أنزل الله إليه فلا يحرم إلا ما حرَّم الله تعالى .

ولذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يحاجَّ محاوريه بسؤالهم عن دليل قولهم فقال تعالى:"

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ" (١٥٠)الأنعام

٤- ترك الأخذ بمجرد الظن والشك :

قال تعالى:"فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ

وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا "١٥٨:النساء

فنعى الله سبحانه على أهل الكتاب اعتقادهم قتل المسيح وصلبه بمجرد الظن دون بينة يكونون بها على يقين من أمرهم.

وربط تعالى بين اتباع الظن والوقوع في الضلال واتباع الهوى فقال تعالى:"وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ" الأنعام(١١٩)

فبين سبحانه أن ضلال أكثر الناس إنما هو بسبب اتباع الظن ، واتباع الهوى بغير دليل ولا بينة.

ولذا قال تعالى:"وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦) يونس

٥- ترك النفي قبل الإحاطة:

قال تعالى: "بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٣٩)يونس

فنعى سبحانه عليهم اتباع الظن ،ونفي الحقائق والتكذيب بها بغير يقين ولا إحاطة ؛ فبين أن هذا هو سبب ضلالهم وهلاكهم.

وقال تعالى: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ" (الأنعام:٩١)

فعاب الله تعالى عليهم النفي بغير بينة ، وبين لنبيه ﷺ ما يحاججهم به مما لا فكاك لهم عنه.

ثالثا : الاحتكام إلى الأدلة العلمية :

وذلك من خلال :

١- تحديد الأصل الذي يرجع إليه عند الاختلاف

٢- الاحتكام إلى الحقائق الثابتة

٣- الاحتجاج بالنقل المعتبر عند الخصم

٤- الاحتجاج على الخصم بكلامه واعتقاده ولازم قوله :

٥- الاحتجاج بالبراهين العلمية والحقائق الثابتة

١- تحديد الأصل الذي يرجع إليه عند الاختلاف

الاتفاق على أصل يرجع إليه، أمر لا بد منه قبل البدء في أي حوار ، وهذا الأصل يختلف تحديده بحسب عقيدة المحاور وثقافته وبيئته [٤٢]؛ فالمرجعية العليا عند كل مسلم هي : الكتاب والسنة ، والضوابط المنهجية في فهم الكتاب والسنة المستفادة من الأصول والقواعد الفقهية المتفق عليها بين أهل السنة على اختلاف مذاهبهم الفقهية. وقد أمر الله بالرد إليهما فقال سبحانه: ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] .فالاتفاق على منهج النظر والاستدلال قبل البدء في أي نقاش علمي يضبط مسار الحوار ويوجهه نحو الوجهة القويمة التي يرجى من ورائها الوصول إلى نتيجة إيجابية ، وذلك لأن الاختلاف في المنهج سيؤدي حتما إلى الدوران في حلقة مفرغة لا حصر لها ولا ضابط ترجع إليه.

٢- الاحتكام إلى الحقائق الثابتة:

من أصول الحوار أن يرد المحاور محاوره إلى الحقائق والوقائع الثابتة التي لا ينكرها إذا كان في ذلك ما يؤيد كلامه ، أو ما يستثمره المحاور ليبني عليه غيره مما يراد إثباته.

قال تعالى :"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ

---

42 - سيأتي تفصيل الكلام في الأصول والمرجعيات التي يمكن أن يلتزم بها في محاورة الآخر من غير المسلمين.

وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩٢) الأنعام

نلاحظ أن الله تعالى يرشد نبيه ﷺ لما يحاج به المشركين فيما يكذبون به ، وذلك بردهم إلى الحقائق الثابتة التي لا ينكرونها ؛ فهم لا ينكرون بعثة موسى عليه السلام ؛ومن ثم يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقررهم بها ليحتج بذلك عليهم ؛ وليبين لهم أن ما أنزل على محمد ﷺ لا يعارض ما جاء به موسى عليه السلام بل هو مصدق له ، فما وجه إنكارهم له وجحودهم به إذا ؟!) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...الآية

وقال تعالى :"وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ" (١٤٦) الأنعام

فهذه أمور ثابتة يعترف بها اليهود ولا ينكرونها ؛ لكونها مما اشتهر في دينهم.

وذلك أيضا مثل قوله تعالى :"كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ "آل عمران:(٩٣)

٣- الاحتجاج بالنقل المعتبر عند الخصم

من أصول الحوار كذلك الاحتجاج بالأدلة النقلية المعتبرة عند الخصم – حتى وإن كان المستدل بها لا يعتقد جملة ما فيها – فقد تشتمل على بعض الصحيح الذي لم تنله يد التحريف.

وذلك أمر منطقي يقرّه الشرع الحكيم ؛ فلا يصح أن يحتج المحاور لخصمه بما لا يؤمن به ولا يعتقده ، ولا بما هو محل النزاع ؛ فإذا كان الخصم يهوديا لا يؤمن بالقرآن ؛ فليس من الحكمة أن يحتج به عليه ، ولكن يجوز أن نحاكمه إلى التوراة التي بأيديهم ،ويقرون بها – إن كان فيها ما يستدل به للقضية محل النزاع.

قال تعالى: "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥) آل عمران

قال ابن كثير :"لَمَّا تقدّم السياق في الرد على النصارى، واعتقادهم الباطل في المسيح وتبين زَيْف ما ذهبوا إليه. وظهور الحق واليقين في أمر عيسى وأمه، وكيف خلقه الله بقدرته ومشيئته، وبعثه إلى بني إسرائيل يدعو إلى عبادة ربه تعالى -شَرَع في الرد على اليهود، قَبَّحهم الله، وبيان أن النَّسْخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه قد وقع، فإن الله، عز وجل، قد نصّ في كتابهم التوراة أن نوحا، عليه السلام، لما خرج من السفينة أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها، ثم بعد هذا حرّم إسرائيل على نفسه لُحْمان الإبل وألبانها، فاتبعه بنوه في ذلك،

وجاءت التوراة بتحريم ذلك، وأشياء أخر زيادة على ذلك. وكان الله، عز وجل، قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه، وقد حرَّم ذلك بعد ذلك. وكان التَّسَرِّي على الزوجة مباحا في شريعة إبراهيم، وقد فعله الخليل إبراهيم في هاجر لما تسرَّى بها على سارّة، وقد حُرِّم مثل هذا في التوراة عليهم. وكذلك كان الجمع بين الأختين شائعا وقد فعله يعقوب، عليه السلام، جمع بين الأختين، ثم حُرِّم ذلك عليهم في التوراة. وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم، فهذا هو النسخ بعينه، فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح، عليه السلام، في إحلاله بعض ما حرم في التوراة، فما بالهم لم يتبعوه؟ بل كذبوه وخالفوه؟ وكذلك ما بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم من الدين القويم، والصراط المستقيم، ومِلَّة أبيه إبراهيم فما بَالُهم لا يؤمنون؟ ولهذا قال تعالى {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزلَ التَّوْرَاةُ } أي: كان حِلا لهم جميعُ الأطعمة قبل نزول التوراة إلا ما حرَّمه إسرائيل، ثم قال: { قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } ؛ فإنها ناطقة بما قلناه { فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }"[43]

فيفهم من كلام ابن كثير أن الله تعالى احتج عليهم بالتوراة لإثبات وقوع النسخ ؛ ليجعل هذا كالمقدمة التي يبنى عليها صحة نسخ القرآن لما معهم ؛ ومن ثم وجوب اتباعه والإيمان بما فيه.

وقال تعالى :" وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ

---

43 – تفسير ابن كثير – (ج ٢ / ص ٧٦)

اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٩١) وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ" (البقرة:٩٢)

فاحتج عليهم بما هو ثابت في التوراة من قتلهم الأنبياء ،وعبادتهم العجل .

وأيضا يمكن الاحتجاج لذلك بقوله تعالى :" وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ" (العنكبوت:٤٦)

ففيها تقرير الاحتجاج في المحاورة بما في أيديهم مما لم يحرفوه ؛ إذ إن الإيمان به يقتضي الاحتجاج به ، ومعلوم أن الإيمان إنما هو بما صح منه و لم تنله يد التحريف والتبديل.

٤- الاحتجاج على الخصم بكلامه واعتقاده ولازم قوله:

قال تعالى مخاطبا اليهود :" قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ"(٩٥) البقرة

فاحتج عليهم بكلامهم واعتقادهم الفاسد ليلزمهم بلازم كلامهم واعتقادهم .

وقال تعالى:"قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ" (٤١) الأنعام

لما كانوا يقرون بالربوبية ردهم إليها وجعلها حجة عليهم ، والآيات في ذلك كثيرة نحو قوله تعالى: "قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ" (٦٥) الأنعام

٥- الاحتجاج بالبراهين والحقائق العلمية

يمكن للمحاور أن يستدل في حواره بالبراهين العلمية والحقائق الثابتة مما يؤيد به كلامه أو يجعله كالمقدمة له ، وذلك كلُّه مع مراعاة أحوال المخاطبين وما يناسبهم من ذلك ، ومراعاة طريقة العرض لتلك الحقائق بما يناسب عقول المخاطبين.

قال تعالى: "أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" (الأنبياء:٣٣)

فاحتج سبحانه هنا على الكافرين المنكرين للغيب بهذه الحقائق الكونية من فتق الأرض عن السموات ، وجعل الماء أصل الكائنات الحية ، وجعل الجبال رواسي مثبتات للأرض ، وما شق فيها من الفجاج والسبل ، وحفظ السماء ، وجعلها سقفا لهذه الأرض ، وتعاقب الليل والنهار ، والشمس والقمر ، ومسير كل منهما في فلك ومدار لا يتعداه إلى غيره.

فهذه كلها حقائق علمية قد أطال العلماء في شرحها وتفسيرها بما لا يتسع له المقام ، قد أجملها القرآن محتجا بها على هؤلاء الذين حاورهم القرآن ويحاورهم في توحيد الله تعالى في كل زمان ومكان.[٤٤]

والقرآن إذ يعتمد منهج الاستدلال العلمي المؤيد بالأدلة والبراهين والحقائق العلمية ؛ فإنه لا يفتأ يطالب محاوريه بهذا المنهج ويلزمهم به .

قال تعالى :"وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ" (البقرة:٢٤)

إنه يلزمهم بالدليل العلمي العملي لقبول تشكيكهم في القرآن – أنه من عند الله – فما دام القرآن ليس من عند الله – على زعمهم – فمعنى ذلك أن في مقدور المخلوقين أن يأتوا بمثله ؛ إذ لا يرجع إلى مقدرة إلهية تفوق قدرة المخلوقين ؛ فمن ثم يلزمهم لإثبات صحة زعمهم أن يأتوا بسورة من مثله ، ويبيح لهم في سبيل ذلك أن يستعينوا بمن وما شاءوا من دون الله تعالى – إن كانوا صادقين.

---

44 – القرآن ملئ بالاحتجاج بمثل هذه الأدلة العلمية ، والمصنفات في مثل ذلك كثيرة لا تخفى ؛ لذا لم أطل بذكر العديد من الأمثلة في ذلك.

خطوات البحث المنهجي

١- التأهل للبحث

أ- التأهل الخلقي (التقوى – الإخلاص – الصدق – الصبر والدأب

ب- - العدل والنزاهة والتجرد والموضوعية والإنصاف – ابتغاء النفع والخير للناس..)

ت- التأهل العلمي (التمكن من آلة اللغة وأدواتها - التمكن من التخصص - التمكن من العلوم المساعدة أو المتداخلة - التمكن من الثقافة العامة – التحلي بجودة الصياغة وجمالها مع الدقة والوضوح)

٢- السمو بالغاية

٣- تحديد الهدف العام : (اختراع (إبداع) – جمع – تكميل- تفصيل- تهذيب – ترتيب – تعيين – تصحيح)

٤- وضوح الفكرة

٥- تحديد المنهج

٦- تحديد الفروض

٧- اختبار الفروض وتمحيصها وتحديد أحدها

٨- تحديد المصادر والمراجع

٩- وضع الخطة العامة بصورة أولية مع مراعاة (الوضوح – دقة الصياغة المعبرة – التسلسل المنطقي)

١٠- جمع المادة باستقراء المصادر (طرق الجمع :البطاقات – الدفتر المقسم المفهرس على الخطة – ملفات الحاسب)

١١- إعادة النظر في الخطة بعد الجمع

١٢- الصياغة عند اكتمال المادة

من أخطاء البحث :

١- غياب الغاية السامية أو فسادها

٢- تشوش الفكرة أو عدم وضوح فكرة البحث

٣- الخطأ في تنزيل الظاهرة تحت أصلها الذي تندرج تحته

٤- عدم تحديد المنهج

٥- عدم استقراء الفروض بالقسمة المنطقية (أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ....الخ)،(أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم ...الخ)(قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أم ....الخ) وآيات أخر وقصة إبراهيم مع الشمس والقمر والكوكب...الخ

٦- البناء على فرض متوهم

٧- عدم التقديم بمقدمة تكشف عن المنهج (سورة الفاتحة كمقدمة للقرآن)

٨- عدم اختيار طريقة العرض والترتيب المناسبة للموضوع ومقصده : هل هو خطابي ، برهاني ، بياني أدبي تأثيري ، جامع بين التأثيرية والموضوعية البرهانية.؛ وهذا يفسر لنا لماذا جاء القرآن على هذا النحو.

٩- عدم التسلسل والترابط بين الفصول والمباحث

١٠- البدء بما لم يسبق تأصيله أو التعريف به

١١- تعميم الحكم بغير استقراء أو إحاطة

١٢- الخطأ في تصور شيء على أنه مسلم ولا يكون كذلك

١٣- التكرار

١٤- الحشو والتطويل والإطناب

١٥- ترك الشرح

١٦- ترك التحليل

١٧- ترك المناقشة

١٨- الميل وعدم الموضوعية

١٩- عدم الإنصاف

٢٠- ترك تعريف المصطلحات

٢١- اضطراب التعريفات والمدلولات بحيث يستخدم المصطلح الواحد بأكثر من مدلول أو أكثر من تعريف ؛ وذلك يرجع إلى اضطراب الباحث في تعريفه ، أو عدم تحديد مدلول له أصلا لديه.

٢٢- عدم القدرة على استنباط النتائج

٢٣- عدم القدرة على الصياغة الدقيقة المعبرة سواء في عنوان البحث أو أبوابه وفصوله ومسائله ، أو في عرض مسائله والتدليل عليها.

٢٤- ترك التوثيق أو نقص البيانات أو الخطأ فيه

٢٥- عدم اشتمال البحث على خاتمة مناسبة

٢٦- اشتمال البحث على أخطاء لغوية أو طباعية أو إملائية أو ترقيمية

٢٧- عدم التنسيق الطباعي الجيد

٢٨- جفاف الصياغة

٢٩- التهويم الأدبي

٣٠- عدم اشتمال البحث على الفهارس اللازمة

٣١- عدم اشتمال البحث على الملاحق اللازمة